

الفصل الخامس

تطور المجتمعات البشرية والنظم الاجتماعية

مقدمة:

كانت مسألة تطور المجتمعات البشرية ولا تزال مثاراً للجدل بين العديد من علماء الاقتصاد والمجتمع والجغرافية، وموضوعاً لكثير من المدارس والاتجاهات الفكرية.

وفي هذا الصدد يقول روستو من جامعة "ماساشو سيتس" في الولايات المتحدة الأمريكية عن مراحل النمو الاجتماعي والاقتصادي للمجتمعات البشرية في كتابه المتعلق بـ "مراحل النمو الاقتصادي"، بأنه لا بد من التمييز بين السلوك الاقتصادي والسلوك غير الاقتصادي معترفاً بأهمية التغير الاقتصادي ونتائجه السياسية والاجتماعية؛ ولكنه يرجع هذا التغير نفسه إلى قوى سياسية واجتماعية وأخرى اقتصادية⁴⁰.

ويعتبر النظام الاقتصادي من أقدم النظم الاجتماعية ظهوراً في الحياة. وقد شهد هذا النظام تطوراً بمرحلة مختلفة من أبسط أشكاله في المجتمعات الإنسانية الأولى أو المجتمعات البدائية. اختلفت فيما بينها باختلاف درجة الحضارة، وأي نظام اقتصادي لم يخلق من العدم، ولم يظهر منفصلاً عن سابقه، بل إنشأ لاحقاً عن السابق. إلا أنه يجب أن يلاحظ أن التطور لم يحدث بطريقة

⁴⁰ رفعت مقداد، محاضرات في الجغرافية الاجتماعية (محاضرة رقم 7)، أقيمت على طلبه السنة

الثالثة، قسم الجغرافية، كلية الآداب، جامعة دمشق، 2011.

موازية بين جميع المجتمعات، حيث نجد أن هناك بعض المجتمعات ما زالت تعيش اقتصاديًا على الأنظمة التي كانت موجودة في المجتمعات الإنسانية الأولى. كما أن التطور لا يعني انتهاء مرحلة سابقة لتقوم مرحلة لاحقة، ففي كثير من الأحيان ترى في مجتمع ما مرحلتين متلازمتين.

ويتضح تطور المجتمعات البشرية من خلال المراحل التالية:

١- مرحلة جمع الثمار وصيد الحيوانات:

وهي تمثل أولى المجتمعات البدائية، فيها يُمارس النشاط الاقتصادي بطريقة بدائية بسيطة، فقد قنع الإنسان بما تجود به الطبيعة من موارد (ثمار، جذور نباتات، قواقع، حشرات...)، وقام الإنسان بصيد الأسماك والحيوانات البرية وكان أفراد المجتمع يرحلون جماعات من مكان لآخر بحثًا عن موارد الرزق استجابة لدوافع فطرية، بالإضافة إلى التجارب التي تنتقل من جيل لآخر، وبتوارثها الأبناء عن الآباء، كطريقة الصيد أو تربية الحيوانات، وقد تراوح عدد أفراد الجماعة خلال هذه المرحلة بين عشرة (10) أفراد ومائة (100) يعيشون معًا في رقعة واحدة.

وقد اضطرتهم مواجهة الحيوانات المفترسة والحروب مع القبائل المعادية إلى صنع بعض الأدوات والأسلحة، فظهرت الحراش والآلات ذات الحد القاطع، وصنع الإنسان لنفسه الملابس من جلود الحيوانات واكتشفت طريقة إيقاد النار، مما أدى إلى ظهور نوع من الاستقرار.

اتسمت هذه المرحلة بوجود نوع من تقسيم العمل، وهذا التقسيم لا

يتصل بالقدرات والمواهب، ولا بما يتصف به كل جنس من صفات، وإنما يرجع إلى الإصطلاح والعرف. فهناك تقسيم عمل بين الرجال والنساء. فقد كان

الرجال يتركون زوجاتهم في الكهوف، ويذهبون لصيد الحيوانات، بينما النساء
فكن يقمن بقطف الثمار⁴¹.

وكان هناك حرف يقوم بها الرجال وأخرى للنساء، فصناعة الجلود
ودبغها ليست من الحرف التي تلائم المرأة، ومع ذلك يتخصص النساء فيها عند
معظم قبائل الهنود في أمريكا الشمالية، وعلى عكس ذلك نجد أن هذه الحرفة
نفسها يُمارسها رجال في الجنوب الغربي من هذه القارة.

وعند قبائل الهوبي في الأريزونا يقوم الرجال بالغزل والنسيج، بينما يقوم
النساء بأعمال صناعة الخزف، كما توجد في هذه القبائل البدائية رجال حدادون
وبناءون للقوارب، وفي بولينزيا متخصصون في الوشم وأعمال الحفر والنقش.

يتميز الشكل الإقتصادي في هذه المرحلة بالاكْتِفَاء الذاتي، وما يتبقى من
الإنتاج يتم تبادله عن طريق المقايضة، وكانت الملكية جماعية، ونظراً لقلّة
حيوانات الصيد كانت الجماعات تنتشر بين الجماعات وتزداد تبعاً لذلك نسبة
الوفيات.

والجدير بالذكر أن هناك بعض المجتمعات البدائية لا تزال تعيش على
نفس هذا النظام، وذلك كقبائل الأنديمان الواقعة في خليج البنغال بين الهند
والفيتنام، وقبائل الهنود الحمر في أمريكا الشمالية، فقد كانوا ينتقلون من مكان
لآخر أثناء فصول السنة بحثاً عن الجذور والنباتات والثمار، وقبائل الأقزام في
إفريقيا وبعض قبائل جنوب إفريقيا.

الأنديمان
الهند

⁴¹ فتحي محمد أبو عيانة، (2002)، جغرافية إفريقيا: دراسة إقليمية للقارة مع التطبيق على دول

جنوب الصحراء، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ص. 83.

٢٥
المرح

2. مرحلة الرعي:

انتقل الإنسان إلى هذه المرحلة عقب مرحلة الصيد، فبعد أن تمكن الإنسان من استئناس الحيوانات التي كانت تُساعده في أغراض الصيد والقنص، كما تمكن من تربية الحيوانات والإعتناء بها.

ومارس الإنسان في هذه المرحلة بعض الصناعات الخفيفة ممثل غزل الصوف ونسجه، واتسعت حضارته، وأصبح يلبس المنسوجات الصوفية بدلا من جلود الحيوانات.

وتعلم الإنسان في هذه المرحلة أن يبني الأكواخ لحماية الحيوانات من أعداءه، ليعيش بداخلها بدلا من عيشته داخل الكهوف والخيام. وتتميز هذه المرحلة بالتنقل، فكانت الجماعة تنتقل وراء المرعى، حيث تعيش على المراعي الطبيعية وبذلك ينتفع الناس بمنتجات الحيوانات نتيجة الرعي المنتظم واستئناس الحيوان.

3. مرحلة الزراعة: صحمر

جاءت هذه المرحلة في ترتيبها بعد مرحلة جمع الثمار وصيد الحيوانات، وتمثل منطقة الشرق الأوسط خاصة العراق وإيران والشام، وهي أقدم مراكز اكتشاف الزراعة وذلك خلال الفترة 20.000 و10.000 سنة ماضية.

وقد عرف الإنسان خلال هذه المرحلة كيفية التحكم في إنتاجه، كما تعلم فكرة التخزين لأول مرة خاصة بعد أن فاقت محاصيله كمية استهلاكه العادي. وفي هذه المرحلة إرتبطت حياة الإنسان بالأرض واستقرت حياته فيها، ومارس التعاون مع أفراد جماعته (قبيلته) في بناء السدود وحرث الأرض، وظهر أول تقسيم للعمل بين المزارعين واتسعت حضارة المجتمع.